

سوط الدموع

"كتبتُ إليكم بدموع كثيرة"

ما يميّز به بولس الرسول هو أبوتّه: "فإنّي أتمخّض بكم حتّى يتصوّر المسيح فيكم"، "وإن كان لكم ربواتٌ من المعلّمين فلکم والدٌ واحدٌ" يقول عن نفسه للكنائس التي أسّسها. والأب هو غير المعلّم، لأنّ المعلّم أجير ينتهي واجبه بتفريغ كيس معلوماته، بغضّ النظر عن فاعليّة وثمار هذه الكلمات في الرعيّة. أمّا الأب فهو راعٍ يهّمه أن تثمر كلمة الله في أبناء الرعيّة - وإلى مئة ضعفٍ! لذلك عندما أخطأ البعض في رعيّة كورنثوس أصاب بولسَ كأبٌ وكربٌ قلبٍ شديد، وكتب إليهم بدموع! هذه الدموع هي ثمار المحبّة والمسؤوليّة ووحدة المصير القائمة بين الراعي والرعيّة، "مَن يشكُّ ولا أحترق أنا؟".

هناك سلطتان قويّتان تتصارعان على حياة أبناء الرعيّة. أوّلها سلطة الخطيئة، وهي سلطة قاهرة مغتصبة تمارسها الأهواء والكبرياء والعجرفة ونقص المحبّة... فتسحق الإلفة وتكسر روابط المحبّة وتخلط المواهب للفوضى...، وهناك سلطة الراعي!

لا أوضح من كلمات بولس عن سلطة الراعي، لكن السؤال هو من أين يستمدّها؟ لقد غلبتُ سلطة بولس سلطانَ أكبر الخطايا في حياة أهل كورنثوس. تفتّشت الشقاكات والخلافات والزنى والاضطرابات... ولا أقسى من هذه السلطانات! لكن بولس تدخل بسلطانه فأعاد الرعيّة إلى المحبّة والعفّة والوحدة!

وأيّ سلطان يمكن أن يملكه راعٍ! الراعي هو أضعف الناس من حيث السلطان الدنيويّ. أبناء الرعيّة أحرار نسبيّاً في علاقاتهم وأعمالهم... فهناك في الوظيفة أو الحزب أو العمل... الحرّية نسبيّة لأنّ المؤمن وإن حرّره الحقّ يخضع مرّات عديدة من دوافع كالخوف والمصلحة أو الجهل لسلطنة الباطل ويفقد شيئاً من حرّيته. لكن المؤمن في الكنيسة حرٌّ بالمطلق من هذه السلطانات! فليس المؤمن موظّفاً يُقطع عنه راتبه ولا هو عسكريٌّ يأمره الراعي إلى حيث يتّجه... لقد عبّر الربّ يسوع تماماً عن تراتبيّة السيّد

في الكنيسة، فجعل الخادم هو الأول، وبالتالي الراعي هو الخادم. لا يملك الراعي أيّ "نفوذ" أو سلطان، لا مادي ولا اجتماعي ولا عسكري ولا سياسي... سلطان الراعي وقوته يكمنان في حيز آخر! لم يهدّد بولس أهل كورنثوس بشيء مما ذكر! لكنّه "تسلّط" على قلوب الرعيّة عندما كتب إليهم "بدموع"، إنّه سوط المحبّة الأقوى من أيّ سلطان، حتّى سلطان الخطيئة ذاتها!

يملك الراعي حقيقتان تجعله "سيّداً" و"متسلّطاً" (للتعبير) على قلوب الناس. وهما استقامة الإيمان والتعليم من جهة ثم محبّته الخالصة وتغانيه في الخدمة من جهة ثانية. إنهما صفتان للـ"أب"! يغتمّ الراعي لخطيئة في الرعيّة ويفرح بالتوبة. حين يغتمّ يؤدّب بالدموع وحين يفرح يجعل فرحه فرح الجميع. إنّ ثمن دموع الراعي هو التوبة في الرعيّة حيث هناك خطيئته!

لذلك عندما تمتزج دموع الراعي مع كلماته القويّة (وإن وُصفت قاسية) فلنتذكّر جميعاً كلمات بولس هنا: "كتبتُ لكم (كلمات قويّة) بدموع كثيرة لا لتغتمّوا بل لتعرفوا ما عندي من المحبّة بالأكثر لكم".

العلاقة بين الراعي والرعيّة هي الرابط الكنسيّ. يترك الراعي بيته وأمه وأبيه وإخوته ويزهد بالدنيا والممتلكات ويهجر الدنيا وما فيها لينصرف إلى خدمة الرعيّة. لقد أحبّ المسيح أكثر من الأب والابنة والأم والإخوة... ليستحقّه ويستحقّ الخدمة في كرمه! على الراعي إذن بعد أن ترك كلّ تلك الروابط المقدّسة والطّيبة أن يتمسّك بالمسيح ويثبت فيه للنهائية، ولا يعود ويني علاقات في الرعيّة كان قد تركها. وإنّ من تدرب بدايةً على ذلك الزهد كلّهُ (بالأهل والمال والدنيا) ليس من السهل أن تغويه شبيهاًتها فيما بعد!

"الرابط الكنسيّ" هو الجسر بين الراعي والرعيّة، فلا يعبرُ هو من درب غيره ولا أبناء الرعيّة يبنون جسوراً أخرى! الرابط الكنسيّ هو بالتحديد: "كلمة الحقّ". ليست الكنيسة "جماعة" تنتخبُ قادةً لها تسميهم رعاةً ويتفقون معاً على نظام داخليّ ويصوّرون العلاقة التي يريدونها! الكنيسة هي شعب الله، راعيه الوحيد هو يسوع، يسوع الذي حدّد ما هي الكنيسة وبعده يأتي الرعاة ليتابعوا عمله.

الرابط الكنسيّ ليس اختراعاً محلياً أو فردياً. علاقة الراعي بالرعيّة في طبيعتها وصورتها من الجهتين سبق ورسمها السيد المسيح في حياته: مؤدّباً وحنوناً وباكياً وفادياً حتّى موت الصليب. "نحن" نكون كنيسة ورعاة أو لا نكون كذلك، ليس بمقدار ما نعتبر أو نقيّم أنفسنا أو نتفق فيما بيننا! بل بمقدار ما نطيع الصورة التي رسمتها حياة "الراعي الصالح" وتلاميذه من بعده وحياة شعب الله في فترات الطاعة لا في زمن العصيان! سلطة الراعي قويّة، لأنّها إلهيّة، إنّها كلمة "كنيسة" - "جسد المسيح"،

إنّها كلمة "أرثوذكسيّة" كعلاقة مخلّصة فيها الشهادة والبشارة والمحبة. نحن لسنا "جماعة" تبحث عن صورة لها، بل نحن شعب تربطه محبة الرابطة الكنسيّة، نتصوّر، في تعثّرات ونهضات، إلى كنيسة الربّ التي افتداها واشتراها بدمه الكريم.

أمام "كلمة الله" وصورة "الكنيسة" تنحني كلّ ركبة مما في السماء وممن على الأرض. لذلك عندما يرفع الشعب دعاءه في القدّاس الإلهيّ لراعيه الذي يقدّم عنه القرايين ويرفع سرّ الشكر يقول: "احفظ يا ربّ أبانا.. متّمماً كلمة حقّك باستقامة (أرثوذكسيّة)". هذا دعاء يتمنى أرثوذكسيّة الراعي لذاته من جهة ولكن أيضاً أرثوذكسيّةه كضمانة للرعيّة حين تحيد هذه عن الحياة المستقيمة. الحياة الجماعيّة في الكنيسة ليست "اتفاقيّة" على نظام داخليّ يناسبنا، إنّما هي سير في عالم "الطاعة" للكلمة الإلهيّة!

سلطة الراعي هي كلمة الله، نعم! لكن مسلكيّته ليقود الرعيّة إلى الطاعة الكاملة للكلمة هي المحبة والدموع. لا تفعل كلمة الله في نفوس أبناء الرعيّة دون دموع تحملها! كلمة الله روحية ولا يمكنها أن تنتقل دون تشوبه إذا ما حملتها أجنحة قاسية! تحتاج كلمة الله إلى حنان ورأفة يحملانها، هذا هو فنّ التنشئة المسيحيّة. الكلمة الإلهيّة تقصد غاية واحدة، الرابطة الكنسيّة ينشد بناء طبيعة واحدة للحياة الكنسيّة الجماعيّة وهي المحبة.

"نحن أعوان سروركم، لأنّي إن كنتُ أغمّمكم فمن الذي يسرّني غير من أسبّب له الغمّ"، بهذه الكلمات الرقيقة يشكر بولس أهل كورنثوس على توبيتهم. الله أبٌ وأمٌّ بحنانه ورأفته، إنّه أبو الرأفات (٢ كور ١، ٣)، "كما يترأّف الأب على البنين يترأّف الله على خائفه" (مز ١٠٢، ١٣).

بمشاعر كحنان الله يخاطب بولس أهل فليبيّ علانيّة: "إنّ الله شاهدٌ لي كيف أشتاق إلى جميعكم في حنان (رأفة) يسوع المسيح" (١، ٨). وهكذا يتوسّط إلى فليمون تلميذه عن العبد أنيسيّمس ويسمّيه "ابني الذي ولدته في قيودي" (١، ١٠). ويبادل بولس المسيحيين في رسائله وخاصّة فاتحاتها بأطيب معاني الشوق والحنين والمحبة الشخصية. "ثم أطلب إليكم بوداعة المسيح وحلمه"، يقول لأهل كورنثوس. وفي رسالته لأهل فليبيّ يقول: "أناشدكم بالمسيح وبما في المحبة من قوّة... وبالحنان والرأفة أن تتمّموا سروري بأن تكونوا على رأيٍ واحدٍ ومحبةٍ واحدةٍ وقلبٍ واحدٍ وفكرٍ واحدٍ" (١، ٢).

الأرثوذكسيّة والحنان، التعليم القويم والأبوة، سلطتان يقتنيهما الراعي بالتوبة والنسك والطهارة والتكريس، ويشتري بهما، وبهما فقط، سلطاناً على الرعيّة يغلب به سلطان كلّ خطيئة، "كتبتُ إليكم بدموع" وهذه الدموع حرقت كلّ الخطايا، أمين.